تفسير ابن كثير

يأمر تعالى رسوله صلى ا عليه وسلّم أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه D كما قال تعالى : { تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون } وكذلك كان صلى ا عليه وسلّم ممتثلا ما أمره ا تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه وحده كما قال تعالى : { ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا } وههنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى : { يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا } قال ابن عباس والضحاك والسدي { يا أيها المزمل } يعني يا أيها النائم وقال قتادة : المزمل في ثيابه وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متزمل بقطيفة وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس { يا أيها المزمل } قال : يا محمد زملت القرآن وقوله تعالى : { نصفه } بدل من الليل { أو انقص منه قليلا * أو زد عليه } أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لاحرج عليك في ذلك .

وقوله تعالى : { ورتل القرآن ترتيلا } أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره وكذلك كان يقرأ صلوات ا وسلامه عليه قالت عائشة Bها : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : كانت مدا ثم قرأ { بسم ا الرحمن الرحيم } يمد بسم ا ويمد الرحمن ويمد الرحيم وقال ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة Bها أنها سئلت عن قراءة رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقالت : كان يقطع قراءته آية آية { بسم ا الرحمن الرحيم * الحمد رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين } رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عاصم عن ذر عن عبد ا بن عمرو [عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها] ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سفيان الثوري به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما جاء في الحديث [زينوا القرآن بأصواتكم] و [ليس منا من لم يتغن بالقرآن] و [لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود] يعني أبا موسى فقال أ بو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا : وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة رواه البغوي وقال البخاري : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة : سمعت أبا وائل قال :

جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في ركعة وقوله تعالى : { إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا } قال الحسن وقتادة : أي العمل به وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته كما قال زيد بن ثابت Bه : أنزل على رسول ا صلى ا عليه وسلّم وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد ا بن عمرو قال : سألت النبي صلى ا عليه وسلّم فقلت : [يا رسول ا هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض] تفرد به أحمد وفي أول صحيح البخاري عن عبد ا بن يوسف عن مالك عن هشام عن أبيه عن عائشة Bها : أن الحارث بن هشام [سأل رسول ا صلى ا عليه وسلّم : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحيانا يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول] قالت عائشة : [ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى ا عليه وسلّم في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا] هذا لفظه وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة Bها قالت : [إن كان ليوحى إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم وهو على راحلته فتضرب بجرانها] وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه [أن النبي صلى ا عليه وسلّم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه] وهذا مرسل الجران هو باطن العنق واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معا كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .

وقوله تعالى : { إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا } قال أبو إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : نشأ قام بالحبشية وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة وكذا قال مجاهد وغير واحد يقال نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد : بعد العشاء وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر : والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الانات والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : { هي أشد وطئا وأقوم قيلا } أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الاية { إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا } فقال له رجل : إنما نقرؤها وأقوم قيلا فقال له : إن أصوب وأقوم

وأهيأ وأشباه هذا واحد .

ولهذا قال تعالى : { إن لك في النهار سبحا طويلا } قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري : فراغا طويلا وقال قتادة : فراغا وبغية ومتقلبا وقال السدي { سبحا طويلا } تطوعا كثيرا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : { إن لك في النهار سبحا طويلا } قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل قال وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن ا تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ { قم الليل إلا قليلا } إلى آخر الاية ثم قرأ { إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك وا يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل ا وآخرون يقاتلون في سبيل ا فاقرؤوا ما تيسر منه } وقال تعالى : { ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا } وهذا الذي قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا يحيى حدثنا سعيد وهو ابن أبي عروبة عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقارا له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت فلقي رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : [أليس لكم في أسوة حسنة ؟] فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول ا A ؟ قال نعم قال : ائت عائشة فسلها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك قال : فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيها إلا مضيا فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا الذي معك ؟ قال : سعيد بن هشام قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر قالت : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامرا قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول ا A ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قالت : فإن خلق رسول ا A كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول ا A قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول ا A قالت : ألست تقرأ هذه السورة { يا أيها المزمل } ؟ قلت : بلى قالت : فإن ا افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول ا A وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك ا خاتمتها في السماء اثني عشر شهرا ثم أنزل ا التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة .

فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول ا A فقلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول

ا A قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه ا لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ثم يقول ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر ا وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليما يسمعنا ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني فلما أسن رسول ا A وأخذه اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك تسع يا بني وكان رسول ا A إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أومرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي ا A قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهرا كاملا غير رمضان فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث قتادة بنحوه .

(طريق أخرى عن عائشة Bها في هذا المعنى) قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب وحدثنا ابن حميد حدثنا مهران قالا جميعا واللفظ لابن وكيع عن موسى بن عبيدة حدثني محمد بن طحلاء عن أبي سلمة عن عائشة Bها قالت : كنت أجعل لرسول ا A حصيرا يصلي عليه من الليل فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيما فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل فقال : [أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن ا لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه] ونزل القرآن { يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه } حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى ا ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة وليس كذلك وإنما هي مكية وقوله في هذا السياق إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب فقد تقدم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن مسعر عن سماك الحنفي سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي أسامة به وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدي كلاهماعن مسعر عن سماك عن ابن عباس كان بينهما سنة وروى ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت { يا أيها المزمل } قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم و سوقهم حتى نزلت { فاقرؤوا ما تيسر منه } قال : فاستراح الناس وكذا قال الحسن البصري والسدي وقال

ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عبيد ا بن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال : فقلت يعني لعائشة أخبرينا عن قيام رسول ا A قالت : ألست تقرأ { يا أيها المزمل } قلت بلى قالت : فإنها كانت قيام رسول ا A وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها في السماء ستة عشر شهرا ثم نزل وقال معمر عن قتادة { قم الليل إلا قليلا } قاموا حولا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فأنزل ا تخفيفها بعد في آخر السورة وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن جعفر عن سعيد هو ابن جبير قال : لما أنزل ا تعالى على نبيه A { يا أيها المزمل } قال : مكث النبي A على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل ا تعالى عليه بعد عشر سنين { إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك وا يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل ا وآخرون يقاتلون في سبيل ا فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة } فخفف ا تعالى عنهم بعد عشر سنين ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن رافع عن يعقوب القمي به .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : { قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا } فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف ا تعالى عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا { علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل ا وآخرون يقاتلون في سبيل ا فاقرؤوا ما تيسر منه } فوسع ا تعالى وله الحمد ولم يضيق وقوله تعالى : { واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا } أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك كما قال تعالى : { فإذا فرغت فانصب } أي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي { وتبتل إليه تبتيلا } أي أخلص له العبادة وقال الحسن : اجتهد وأبتل إليه نفسك وقال ابن جرير : يقال للعابد متبتل ومنه الحديث المروي : نهى عن التبتل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج وقوله تعالى : { رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا } أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلا كما قال تعالى في الاية الأخرى : { فاعبده وتوكل عليه } وكقوله : { إياك نعبد وإياك نستعين } وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة وتخصيصه بالتوكل عليه